التماثيل..

سهيل الشعار

- ١ -

كثيرة جداً هي التماثيل في بلادي.. أكثر بكثير من المقاهي والمراحيض العامّة، ودور السينما، والمؤسّسات الاستهلاكية، ومواقف «السرفيس». وهي – أقصد التماثيل – في ازدياد مستمر..

- ٢ -

كان عمري ستة عشر عاماً.

هاأنذا أتقدّم.. الفصل خريف، والأشجار عارية تماماً، والريح باردة شرسة، وأنا حزين، وقلبي عار من كلّ شيء، وغرفتنا بائسة وشاحبة كالموت، وأمّي العجوز مريضة جداً.

أتقدّم..

وأتذكّر حياتنا الكئيبة..

أقفز بحذر إلى حديقة المتحف الوطني للمدينة، وأنسلّ كثعبان جائع متخفياً بين التماثيل الرومانية القديمة.. أقترب من التمثال.

ليس التمثال ثقيلاً، باستطاعتي حمله، ونقله إلى غرفتنا الصغيرة. وسيفرح الجيران حين أوزّع عليهم «الفدية».

أصل..

سأعتقل التمثال وأحتجزه لعدّة أيام أو أسابيع – حسب الظروف – ثم أذهب بنفسي إلى مخفر المدينة، وأعترف بأنّني أحتجز تمثالاً ثميناً داخل غرفتي الصغيرة، ولن أفرج عنه إلاّ بعد مفاوضات، أصرّ فيها على شروطي:

– أريد فدية.

بعد ذلك، سأوزّع ما كسبته على الجيران لشراء الخبز والبطاطا، وأشياء أخرى..

- ٣ -

أحمل التمثال على ظهري، ثم أقفز بصعوبة إلى الشارع. الرياح باردة تصفع وجهي، والمساء حزين وشاحب كغرفتنا. أسير عدّة خطوات.. ثم أنطلق... أسمع أحدهم يصيح:

«لص. لص. اقبضوا عليه.!».

أُدرك أنّ خطّتي انكشفت، لكنّها لن تفشل. أُضاعف من سرعتي.. يتبعني رجل يزعق بخوف:

«لصّ. لصّ»..

لا شكّ أنّه حارس المتحف، كيف لم أرَه؟

رجل عجوز، كمقبرة قديمة، رخو، لا يقوى على الكلام، بصعوبة ينتزع من حلقه كلمةً واحدةً ممطوطة: لص.. لص..

أستطيع الهرب منه بسهولة..

كان الليل ثقيلاً، وغائماً، والضباب يلفّ الشوارع والأبنية العالية المضاءة.

- ٤ -

سألَتْ أمي مستغربة:

– ما هذا!؟

قلتُ وأنا أغطّي التمثال:

– «رزْقة» ثمنها مليون ليرة.

وتابعتُ بعد أن جلستُ قرب المدفأة:

– لكنّني – وأنت تعلمين ذلك – لستُ طمّاعاً. سأبيع هذه الرزقة بعشرين ألف ليرة فقط.

– قليل. من مليون إلى عشرين ألف. هذا قليل جداً!

– لا. ليس قليلاً. ألم تسمعي المثل الذي يقول: «ارضَ بالقليل تكنْ غنياً؟». سأوزّع هذه الثروة على جيراننا الفقراء.

رفعت أمي يديها، وشرعت – كالعادة – تتضرّع إلى الله وتدعو لي بطول العمر:

– «روح يا سندي. الأرض تطلعلك، والسما تنزلّك».

تابعتُ مغتبطاً وأنا أنظر إلى التمثال:

– طبعاً. ونحن سنأخذ ما يكفينا لشراء الخبز والبطاطا لمدّة عام.

- ٥ -

في الساعة الخامسة صباحاً، توقّفت سيارةُ الشرطة أمام غرفتنا، ونزل منها عدّة رجال مسلّحين. رأيتهم من خلال النافذة الصغيرة، وكان العجوز معهم.

قلتُ لأمّي التي استيقظتْ:

– لا تخافي. إنّهم أولاد حلال.

قُرع الباب..

قلتُ فجأة:

– عشرون ألف ليرة. فوراً. عدّاً ونقداً.

قُرع الباب من جديد:

– افتحْ يا لص. يا حرامي. افتح.

– أنا لست لصّاً، كما تظنون، أريد عشرين ألف ليرة فقط لشراء الخبز والبطاطا لنا ولجيراننا.

– افتح وإلاّ كسرنا الباب!

قلتُ:

– طوّلوا بالكم يا جماعة، بالرواق والتفاهم يصير كل شيء.

ثم تابعتُ وأنا أقترب من التمثال:

– أريد أن أسألكم يا شباب: أليس بيع التماثيل لشراء الخبز والبطاطا للنّاس أفضل بكثير من أن تبقى هذه التماثيل «مصمودة» في الساحات العامّة والحدائق للفرجة؟

لم «يطولوا بالهم». كسروا الباب وأخذوني مع التمثال إلى المخفر. ركلوني هناك ركلات قاسيةً عديدة.. وسجّلوا اسمي واسم أبي وأمي، وأسماءَ الجيران على دفتر كبير.. مع وضع ملاحظة بالقلم الأحمر العريض إلى جانب اسمي الثلاثي: «.. نصّاب وحرامي، ويحتال على الدولة والقانون..».

وقد أُطلق سراحي بعد عدّة سنوات.. لأجد نفسي وحيداً دون أمّ، وقد كَثُرَتِ التماثيلُ، وملأتْ ساحاتِ المدينة...

دمشق

(الكاتب من أصل لبناني)